متابعات نقدية

مواد البيان لعلى بن خلف (٤١٤هـ)

أ. د. محمد زغلول سلام*

كان تعرفنا على كتاب «مواد البيان» لعلى بن خلف عن طريق كتاب «**صبح الأعشى**» للقلقشندى ، فقد نقل معظم الكتاب مفرقًا فى فصوله المختلفة ، وصدَّر ما نقل بقوله : «جاء فى مواد البيان لعلى بن خلف» ، أو «قال على بن خلف فى مواد البيان» ، أو ما شابه هذه العبارات ، ثم يأتى بكلامه ، نصًا من الكتاب ، وقد ينقل دون إشارة .

وبعد ذلك وبالرجوع إلى كشف الظنون تبين ذكر حاجى خليفة للكتاب باسم «**موارد البيان**» .

والعجيب أن أيًا من الكتب السابقة على القلقشندى مما يهتم بكتابة الإنشاء ، وفن الرسائل فى مصر منذ العصر الفاطمى ـ لم تذكر اسم الكتاب ولاصاحبه ، على كثرة تلك الكتب واختلاف درجات أصحابها ومكانتهم ، واختلاف أقدار كتبهم وأحجامها . ونذكر من بينها كتاب «**قانون ديوان الرسائل**» لابن الصيرفى ، و«**معالم الكتابة**» لعبدالرحيم بن على ابن شيت ، وهما أقرب عهدًا بعلى بن خلف وكتابه ، ثم جاء من بعدهما ابن مماتى فى «**قوانين الدواوين**» ، وضياء الدين بن الأثير فى كتبه : «**المثل السائر**» ، و«**الجامع الكبير**» ، و«**المنشّا فى صناعة الإنشا**» ، و«**الوشى المرقوم فى حل المنظوم ونظم المنثور**» ، وشهاب الدين محمود فى كتابه «**حُسن التوسل إلى صناعة الترسل**» ، وعماد الدين بن الأثير فى «**جوهر كنز البلاغة**» .

وظل اعتمادنا متصلاً على كتاب القلقشندى فى التعرف على «مواد البيان» وموضوعاته ، حتى ظهرت طبعة محققة للكتاب من منشورات جامعة الفاتح بليبيا سنة ١٩٨٢ ، بعنوان «مواد البيان» لعلى بن خلف الكاتب ، تحقيق الدكتور/ حسين عبداللطيف .

وقد اعترف المحقق فى مقدمته بما لقيه من صعاب فى سبيل الحصول على ترجمة شافية لمؤلف الكتاب ، على بن خلف ، على كثرة بحثه وتنقيبه كما يقول .

والغموض يعترى ترجمة ابن خلف ـ صاحب الكتاب ـ من ناحيتين : الأولى تناقض تاريخ وفاة على بن خلف ـ وزير بهاء الدولة البويهى ـ الذى انتقل إلى مصر من بغداد فى سنة ٤٠٦هـ أو بعدها بقليل ، وظل فى مصر حتى توفى بها سنة ٤١٤هـ .

(*) أستاذ الأدب العربى والمتفرغ بكلية آداب بنها .

واختلفت الروايات حول من كان من سلاطين البويهيين على خلاف مع ابن خلف ، وكان وزيراً يلقب بفخر الدين الملك أبى غالب ، أهو بهاء الدولة أم ابنه سلطان الدولة؟![1] .

وعلى أية حال فالمتفق عليه أن عليًا بن خلف غادر بغداد إلى القاهرة هو وابنه أبوشجاع ، وكان دخولهما مصر فى زمن الظاهر ابن الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٦هـ .

قال الصفدى[2] : على بن محمد بن خلف ، أبو سعد الكاتب النيرمانى من إحدى قرى الجبل بالقرب من همدان . كان من جلة الكتاب الفضلاء ، والرؤساء النبلاء ، كان يخدم فى ديوان بنى بويه ببغداد ، وكان قد اتصل ببهاء الدولة ابن عضد الدولة ، فصنف له « **المنثور البهائى** » ، وهو نثر كتاب الحماسة وغيرها ، وتوفى سنة أربع عشرة وأربعمائة (٤١٤هـ) . وهذا الخبر يقطع بسنة وفاته ، وبأنه ألف لبهاء الدولة كتابًا ينثر فيه شعر الحماسة وغيره من الشعر ، وقد نقل بعضًا منه القلقشندى عن «**مواد البيان**» .

وهذا الخبر يتعلق شقه الأول باسم الكتاب الذى ألفه على بن خلف لبهاء الدولة ، وعلاقته بمواد البيان ، والآخر يتعلق بسنة الوفاة وتضاربها مع خبر جاء فى «**مواد البيان**» ، كذلك يشير إلى أن صاحب الكتاب توفى فى عام ٤٣٧ أو بعده .

ويقول خبر آخر : إن أبا شجاع محمد بن على بن خلف ولى الوزارة للمستنصر ابن الظاهر سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وظل بها حتى سنة ست وستين وأربعمائة ؛ حيث عزل عنها مغضوبًا عليه ، ففر إلى الشام عن طريق البحر ولقيه بدر الجمالى ـ الذى استدعى لتولى الوزارة بعد الفوضى التى عمت البلاد ـ فقبض الجمالى على محمد بن على بن خلف وقتله .

وهذه الأحداث تطرح تساؤلاً : عمَّن ألف كتاب «**مواد البيان**» إذا صح تاريخ وفاة الأب «على» سنة ٤١٤هـ ؟! فإذا كان الأب قد بدأ تأليف الكتاب وتوفى دون إتمامه ، وقام الابن بإتمامه حلَّ هذا الطرح الإشكال . ولنا أسوة فى تاريخ التأليف العربى والإسلامى ، فقد تعاقب على تأليف كتاب « **المغْرب** » لابن سعيد غير واحد على سبيل المثال ، كما شارك بعد ذلك الابن أباه فى كتاب واحد ، وهما : علاء الدين بن الأثير وعماد الدين[3] .

فإذا قبلنا هذا الطرح واسترحنا له ، قلنا : إن علىّ بن خلف بدأ تأليف «**مواد البيان**» ، لكنه مات قبل تمامه ، فأتمه ابنه محمد الذى تولى الوزارة للمستنصر .

---

(١) راجع ترجمته فى «يتيمة الدهر» و«تتمة اليتيمة» للثعالبى ، و«فوات الوفيات» لابن شاكر .
(٢) الوافى بالوفيات جـ ٢١/ ص ٤٥٤ .
(٣) إذ ألف الأب كتابًا بعنوان «كنز البراعة فى أدوات ذوى اليراعة» ، واختصر الابن الكتاب وسماه «جوهر كنز البراعة» ، وقد قمت بتحقيقه ، ونشرته منشأة المعارف بالأسكندرية .

أما التعرف على ما بدأ الأب به ، وما أتمه الابن فهذا إشكال آخر . قد يظهر حقيقته مزيد من الدرس المتأنى لمادة الكتاب .

وهناك احتمال وارد عن خطأ فى تاريخ وفاة على بن خلف .

ونبدأ الآن فى عرض أصول الكتاب وموضوعاته ، وآثاره فى الكتابة ، والكتاب فى مصر منذ القرن الخامس وحتى القلقشندى فى القرن التاسع الهجرى .

ذكر محقق النسخة أنه لم يعثر للكتاب إلا على نسخة واحدة بمكتبة السليمانية باستانبول ورقمها ٤١٢٨ ، وعدد أوراقها ٢٠٢ ورقة ، وعدد الأسطر فى الصفحات ١٥ سطرًا .

وجاء اسم المؤلِّف تحت العنوان «مواد البيان» ، تصنيف الشيخ الإمام العلامة أبى الحسن على بن خلف بن على بن عبدالوهاب الكاتب بحمد الله تعالى .

ونلاحظ على اسم المؤلِّف خلافًا لما جاء فى كتب التراجم ، فقد جاء فى ترجمة الصفدى ـ كما ذكرنا ـ «على بن محمد بن خلف ، وكنى بأبى سعد وليس بأبى الحسن» .

ويبدو أن هذا التحريف فى اسم المؤلف راجع إلى رداءة النسخة الوحيدة المعتمدة ؛ لجهل الناسخ الذى ظهر فى كثير من المواضع ، والذى أشار المحقق إلى كثير من مظاهره ، كالأخطاء اللغوية والإملائية ، فضلا عن تصحيفه لبعض أسماء الأعلام والأماكن ، ذلك كله إلى كثرة السقط فى النسخة ؛ من كلمات مفردة إلى عبارات ، إلى أشطر من الشعر كاملة ، كما أن الناسخ ـ لجهله بالعروض ـ أضاف بعض الألفاظ وأسقط أخرى فاختل الوزن فى كثير مما جاء بالنسخة من أبيات الشعر[1] .

ومع أنه ـ أى الناسخ ـ يتبع بعض أصول النسخ وقواعده إلا أنه لا يطبقها دائما ؛ لقلة خبرته فيما يبدو .

ويشير المحقق إلى أنه لاقى صعوبة فى تقويم النص لاعتماده على هذه النسخة المفردة ، وإن جعل مما نقله القلقشندى فى صبح الأعشى مرجعًا له[2] .

ومع هذا الجهد الذى بذله المحقق فقد ندَّت منه أشياء يضيق المجال عن تعقبها .

ويكفى أن المحقق قد بعث هذا النصَّ من مرقده ، وأوقفنا عليه بعد طول غياب ، مع أهميته فى التعرف على هذا التراث من سلسلة الكتب التى تتصدى لصناعة الكتابة عامة ،

---

(١) مواد البيان ، ص ١٤ .

(٢) مواد البيان ، ص ٥ وما بعدها .

والديوانية على الأخص ، والتى يعد «مواد البيان» من حلقاتها المفقودة التى تعرف بالتراث المصرى .

ويقوم الكتاب على مقدمة وعشرة أبواب :

أما المقدمة فيتحدث فيها المؤلف عن صنعة البيان ، وأن فضل القُدماء فيه راجع إلى اختراع المعانى ، وفضل المحدثين فى أنهم أبدعوا وجددوا ، وليست المعانى قاصرة على القدماء وحدهم ؛ إذ المعانى قائمة فى نفوس المميزين ، وهو يرى أنه بعمله هذا إنما يأتى بفضيلة فى استدراك ما أغفلوه ، وتجلية ما أغمضوه ، يقول : «وأقدرنا الله على ما حملوه عنا من مؤونة الابتداع ، وألقوه على قرائحنا من فضل الاتباع على تفصيل ما أجملوه ، وتلخيص ما أسهبوه ، فلهم حق التشكيل والتركيب ، ولنا حق التكميل والترتيب»[١] .

هذا فيما يتصل بالبيان عامة ، وأما ما يتصل بالكتابة الديوانية فيقول مشيرًا إلى من سبق إلى التأليف فيه : «إلا أننا لما طالعنا الكتب الموضوعة فيها وجدنا أكثرها معدولا به عن طريق القصد إليها ؛ لأن من الواضعين من اختصر وقصَّر ، ومنهم من أسهب وكثَّر ، ومنهم من شغل كتابه بأجزاء من العلوم القائمة بأنفسها ، الموجودة فى مظَانّها لما للصناعة من شركة فيها ، وأخلَّ بما هو فى نفسها وهو أخصّ بها ، ومنهم من اقتصر على إيداع كتابه رسومًا لا تستعمل إلا فى دولة بذاتها ، وبلاد بعينها ، فلا ينتفع بكتابه فى غيرها ، ومنهم من نصَّ على طريقة قد صار عرفها وأمرها إمرًا ؛ لوقوع الاصطلاح على هجرها وإلغائها ، والاستبدال منها بما هو أليق بالزمان والمكان وأهليهما ، ومنهم من استوفى الفن الذى مهر فيه وتدرب به ، وقصَّر فى غيره من الفنون الأُخر ، وهى من أجزاء الصناعة وأقسامها . فرأينا لذلك ـ وبالله التوفيق ـ أن نصنف كتابًا جامعًا لأصولها وفروعها ، ورسومها المستعملة وأوضاعها ، وأقسام البلاغة وأنواعها ؛ ليكون علمًا يهتدى بناره ، ودليلا يسعى على آثاره»[٢] .

وبناء على ما جاء فى المقدمة قسّم أبوابه العشرة على جانبى صنعة البيان عامة أو البلاغة وخصائصها ، والكتابة الديوانية ورسومها ، فجاءت كما يلى :

الباب الأول : فى حد صناعة الكتابة ، وفضيلتها ، ومنفعتها وقيمتها ، ورسم الكتاب ، وعلة وضعه .

---

(١) مواد البيان ، ص ٢٦ .

(٢) مواد البيان ، ص ٢٧ .

الباب الثانى : فى البلاغة وأقسامها الأصلية .

الباب الثالث : فى أقسام البلاغة الفرعية .

الباب الرابع : فى صناعة البديع وأبوابها .

الباب الخامس : فى ما يخرج الكلام عن أحكام البلاغة .

الباب السادس : فى أن الطبع هو قوام الصناعة ونظامها ، واحتذاء مذاهب السابقين بكمالها وتمامها .

الباب السابع : فى أوضاع الخط وقوانينه ، وترتيب الصدور والأدعية ، والعنوانات ، والتاريخ ، والختم .

الباب الثامن : فى رسوم المكاتبات .

الباب التاسع : فى آداب الصناعة .

الباب العاشر : فى آداب السياسة .

ومن تقسيم موضوعات الكتاب على أبوابه نلاحظ أن الحديث عن صنعة البيان أو البلاغة وأقسامها وخصائصها يتفرق على الأبواب الستة الأولى ، وتختص الأبواب من السابع إلى العاشر برسوم الكتابة الديوانية .

وقد كان لعلى بن خلف وكتابه أثر واضح فى الكتّاب الفاطميين ومن جاء بعدهم ، كما أشرنا من قبل ، ولعل منهجه فى نثر النظم ونظم النثر كان من أهم تقنيات فن الرسائل فى عصر الفاطميين ، خلافا لطريقة كتاب العباسيين ، أمثال ابن العميد والصاحب ابن عباد ، حتى إن طريقة القاضى الفاضل الذى تأثر كثيرا بكُتّاب الفاطميين قد نسخت طريقة ابن العميد ، كما ذكر فى كثير من المصادر . وتبعه من سار على الدرب الفاضلى من كتاب العصور التالية ، أمثال محيى الدين عبدالظاهر ، وابن سناء الملك .

أما من تأثروا بمنهجه فى كتاب «مواد البيان» فجماعة من الكُتّاب والمؤلفين ؛ بعضهم من العصر الفاطمى وأوائل العصر الأيوبى ، وكثير منهم بعد ذلك حتى العصر المملوكى ، والقلقشندى فى القرن التاسع الهجرى .

وأول من اقتصر فى مؤلفه على جانب الرسائل الديوانية ورسومها : على بن أنجب الصيرفى فى كتابه «قانون ديوان الرسائل»[1] ، وعلى الرغم من وضوح اعتماده فى كثير من

---

(١) طبع هذا الكتاب بعناية على بهجت سنة ١٩٠٥م .

مادة كتابه على كتاب «**مواد البيان**» فإنه لم يورد له ذكرًا ، ومعروف أن ابن الصيرفى من كتّاب أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس ، وهو كاتب الأفضل بن بدر الجمالى الذى قتل ابن على بن خلف ، فلعل هذا كان من الأسباب التى منعته من أن يذكر الكتاب وصاحبه .

وثانى هؤلاء الكتاب هو : عبدالرحيم بن على بن شيث صاحب كتاب «**معالم الكتابة ومغانم الإصابة**»[1] ، وهو مؤلف مختصر يكاد يختصر فيه أكثر ما جاء فى «**مواد البيان**» من موضوعه العام المتعلق بالحديث عن البلاغة والكتاب ، والخاص المتعلق بكتابة الرسائل الديوانية ورسومها ، ويقسمه ثمانية أبواب يختلط فيها الخاص بالعام . ويأتى بعده كتاب «**قوانين الدواوين**» لابن مماتى ، وهو خاص برسوم دواوين الدولة ، ويخص الموضوع الثانى فى كتاب «**مواد البيان**» ، ثم يأتى بعده كتاب شهاب الدين محمود «**حسن التوسل**» .

ويؤلف ضياء الدين بن الأثير كتابيه : «**المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر**» و«**الجامع الكبير**» ، متبعًا نهج أبى هلال فى «**الصناعتين**» ، وكتابيه الصغيرين : «**الوشى المرقوم**» و«**مفتاح المنشا فى صناعة الإنشا**» فى صنعة الكتابة . ويتبعه عماد الدين بن الأثير فى «**جوهر الكنز**» ؛ لينهج النهج نفسه مع التأثر بـ «**العمدة**» لابن رشيق .

ثم يختم هذه السلسلة القلقشندى بكتابه الموسوعة «**صبح الأعشى فى صناعة الإنشا**» ، فيعود مرة أخرى إلى ما اختطه صاحب «**مواد البيان**» ليُوقف كتابه على صناعة الإنشاء فى ديوان الإنشاء أو الرسائل ، وما ينبغى على كتاب ذلك الديوان اتباعه ؛ من التعرف على أصول صناعة الكتابة أو الإنشاء ، ووجوب الدراية بفنون البلاغة ورسوم الكتابة ، والخطوط والمعارف الخاصة بالدواوين المختلفة ، ورسوم المملكة وأعمالها . . إلى غير ذلك .

ولعلى لا أكون مغاليًا فى القول بأنه أكثر من جاء بعد على بن خلف تأثرًا بمنهجه ، وإن توسع وأطال حتى بلغ مُصنّفُه أضعاف «**مواد البيان**» ، إلا أن النهج قريب ، واستعانته به فى كثير من مادة الكتاب أوضح من أن ينبه عليها . وقد وقف على نسخة كاملة منه وضعها أمامه حين صنف موسوعته . فمن حيث الشكل جارى ابن خلف فى بناء الكتاب على مقدمة وعشر مقالات ، مغيرًا بذلك أبواب ابن خلف إلى مقالات . إلا أنه خالف ابن خلف

---

(١) طبع .

فى تكثيف القول فى رسوم الكتابة ومعارف كُتّاب الدواوين وثقافتهم ، كما أطال فى حديث الخطوط وأنواعها إلى غير ذلك ، وهو ما أوجزه ابن خلف فى أبوابه من السادس إلى السابع . وجرى الحديث عند القلقشندى فى أمور من ثقافة الكاتب التاريخية والسياسية والجغرافية ، مما جعل الكتاب موسوعة علمية جامعة لعلوم العصر ، وليس مجرد كتاب عن فنون الكتابة والإنشاء .

* * *